

التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة التاسعة: التوحيد في المنظومة العملية للإسلام



التأصيل الإسلامي؛ المحاضرة التاسعة من سلسلة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل

46 سنة

التوحيد في المنظومة العملية للإسلام

الجمعة 10 رمضان المبارك 1394 هجرية

الإنسان الإلهي يقول إن ما وراء هذه المشهودات حقيقة أسمى وأعظم مما نشاهده، ولو لم تكن تلك الحقيقة ما وجدت هذه الظواهر المشهودة. والإنسان المادي يقول: لا نستطيع أن نؤمن بغير هذه المشهودات، لم نجد في المختبرات ما يدل على ما يقوله الإلهيون.

دعنا عن أقوال اليونانيين والرومان القدماء بشأن هذه المسألة، حديثنا عن الماديين في عصرنا. نحن نعتقد أن هؤلاء الماديين في عصرنا يطلقون هذه المزاعم لأنهم يعانون من عقدة فكرية ونفسية تجاه المدرسة الإلهية. هؤلاء يخالون أن إقامة العدل وإزالة التمييز في المجتمع لا تتحقق إلا في ظل الفكر المادي، ومن هنا يُعرضون عن المدرسة الإلهية. لو أمعنتم النظر في الحياة الفكرية لأتباع المدرسة المادية في عصرنا لتبين لكم صحة ما نقول. ليس رفضهم لوجود الله عن عناد تجاه الخالق، ولا بسبب عدم عثورهم على استدلال فكري لإثبات وجوده، إذ لا يمكن أن يكون هناك استدلال فكري على نفي وجود الله، لا الآن ولا في الماضي، لا يستطيعون أن تجدوا ماديًا في العالم يطرح دليلاً على عدم وجود الله، بل قصارى قولهم أنه لم يثبت لنا وجود الباري، وأنه لم نفهم ولا نقبل استدلال الإلهيين، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا بقوله: (إِنَّ هُمْ إِلَّا يَطْمَئِنُّونَ) [1].

إذن ليست هناك فلسفة عقلية للإنكار، بل إن أنصار المدرسة المادية في عصرنا يخالون أن المدرسة المادية أقدر على إدارة العالم وعلى إنقاذه من الظلم والجشع والتمييز. والدين لا يستطيع أن يفعل ذلك. لماذا يصرون حكمًا كهذا على الدين؟ لأنهم يفهمون الدين بمعناه التقليدي الشائع الموروث من عصر التخلف. الدين الذي يكتفي بالعادات والتقاليد والطقوس ولا يحرك ساكنًا في المجتمع، لذلك يقولون عنه إنه أفيون الشعوب.

واضح أننا حين نواجه هذا المنطق ليس لنا إلا أن نقول: لو رأيتم دينًا يقر على ظلم الظالمين ويساند المستبدين، ولا يهتم بأمر المظلومين ولا يجدي نفعًا للمسحوقين فرفضوه إننا معكم رافضون. الدين الإلهي له خصائص معينة ومواصفات خاصة، إن توفرت نقبله وإن لم تتوفر نرفضه.

القرآن يقول: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا نَزَّلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَنَزَّلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [2] الأنبياء كلهم مرسلون من أجل أن يسود العدل



ثمة مسائل فكرية أرى من اللازم على الجميع أن يفهمها. إحداها أن التوحيد ينبغي أن لا يُطرح بصورة جافة وبشكل سؤال علمي عقلي، بل بصورة مسألة حياتية مصيرية. ولتوضيح ذلك أقول:

ربما تسير أنت في طريقٍ مع رفيق سفر ثم يدور بينكما نقاش حول طبيعة الأرض التي تقع على جانبي الطريق. أحدهما يقول إن هذه الأرض خصبة صالحة للزراعة والآخر يقول إنها أرض ملحية لا تصلح للزراعة. أنت تستدل وصاحبك يستدل، والسيارة تطوي بكما الطريق بسرعة. ليس في قصدكما شراء قطعة من تلك الأرض أو استثمارها للزراعة، وليس هدفكما اختبار تلك التربة. فالحديث بينكما ليس له أي تأثير عملي عليكما، وإثبات أنها خصبة أو ملحية لا يؤثر في مسيركما.. بل إن المسير يتواصل سواء ثبت هذا أو ذلك.

وفي حالة أخرى ربّما أنتما تركبان سيارة تتحرك بسرعة، وفجأة يقول صديقك أعتقد أن اتجاه حركتنا نحو الشمال بينما القصد هو الجنوب! وأنت تخالفه وتقول: لا نحن نسير نحو الجنوب. ويستخدم الكلام بينكما بشكل جادّ، إذ لو صحّ كلام رفيقك للزم استدارة السيارة إلى الورا، ولو صحّ كلامك لو اصلتما المسير. أول تأثير لهذا النقاش أن السائق سوف يخفف من سرعته ليرى النتيجة، لأن النتيجة لها التأثير الكبير في المسار. وبحث التوحيد هو من هذا القبيل.

أولئك الذين يعيشون على مستوى المسؤولية والالتزام يجب أن يفهموا التوحيد بصورة غير الصورة المرترسة في أذهان الذين يعيشون حياة البطر وعدم الالتزام.

قد يُخيل إلينا أن التوحيد مسألة تعيش في الأذهان دون أن يكون لها أثر في الخارج، ودون أن تكون عامل تأثير في الحياة. بينما التوحيد الذي يدعو إليه الإسلام هو أسمى من أن يكون جواباً نظرياً على سؤال. التوحيد الإسلامي يعمل على صياغة نظام الحكم والعلاقات الاجتماعية، ويوجّه حركة التاريخ، ويرسم الهدف من هذه الحركة، ويقرر مسؤوليات الناس تجاه الله وتجاه بعضهم الآخر، وتجاه سائر مظاهر الطبيعة. ليس التوحيد بالأمر الذي تقول فيه إن الله واحد وليس اثنين وكفى.. إنه يعني أن الحقّ واحد في أن يكون مهيمناً على حياتنا الفردية والاجتماعية.

«إنّ واحد» يعني أن ما تمتلكه من ثروة وما يمتلكه سائر البشر من ثروات إنّما هي لله وحده، أودعها لدى الناس لكي يتصرفوا فيها وفق ما عيّن الله سبحانه: «المال مال الله جعلها ودائع عند الناس»[4].

الإيمان بالتوحيد ينفي التمييز الطبقي: «كلكم من آدم وآدم من تراب»[5]، وكرامة الإنسان عند الله

بالتقوى لا غير حين ترى تَعَالِي جماعة على جماعة في المجتمع فليس ذاك بالمجتمع التوحيدي.

الإيمان بالتوحيد يعني رفض العبودية لغير الله، إذ لا تجتمع عبودية الله مع عبودية غير الله، فالإنسان في منظار التوحيد متحرر من أية عبودية سوى عبودية الله.

لقد أدرك الإنسان المسلم هذه الحقيقة منذ انبثاق الرسالة، إذ نجدها على لسان ربي بن عامر [6] حين دخل على رستم (قائد جيوش يزدجرد الساساني)، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، والزرايب الحرير، وأظهر اليواقيت واللاكئ الثمينة والزينة العظيمة، وقد جلس على سرير من ذهب. دخل ربي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة.. فقالوا له ماجاء بكم؟ فقال:

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..».

وما معنى عبادة العباد؟ نراها واضحة في تصرف الطواغيت مع الشعوب. يروى أن رجلاً في عصر الأحمينيين (الملوك الذين سبقوا الساسانيين في إيران) كان له أربعة أولاد، طُلبوا لكي يخرجوا مع الجيش المقاتل، فتوسّل بالسلطان أن يُبقي أحد أولاده عنده لأنه شيخ عجوز لا يقدر لوحده على إدارة أموره. فلم يحصل على جواب وأُخرج من مجلس السلطان. وحينما توجهت الجيوش إلى بوابة المدينة، وجدوا أن الابن الرابع الذي طلب والده أن يبقى عنده قد شُقّ جسده شقين، وعُلّق كل شقّ على جانب من البوابة!! كي لا يجرؤ أحد على المطالبة بإعفاء ابنه من الحرب. هذه هي العبودية. لا يحقّ للإنسان أن يطالب بأدنى حقوقه، لا يحقّ له أن يطالب بالعدل وبالإنصاف، لا يستطيع أن يعبر عن فكره وإرادته. مثل هذه الحياة هي أسوأ أنواع العبودية. هذه العبودية أسوأ من عبودية استرقاق الناس في منطقة معينة وبيعهم في أسواق النخاسة.

«من عبادة العباد إلى عبادة الله» وما معنى عبادة الله؟ يعني التحرر، يعني أن تكون سيد نفسك، يعني الحركة نحو الكمال بحرية وبمقدار ما تريد. وهكذا كان الناس في المجتمع الإسلامي، كانوا عباداً لله لا عبيدًا للقوى المهيمنة، حتى في العصور التي انحرفت فيها المسيرة الإسلامية كان المسلمون يعيشون عبيدًا لله دون سواه.

كان الحاكم يخاطب الناس فيما يروى: «أيها الناس من رأى فيّ اعوجاجًا فليقوّمه» فيجيبه رجل: «وا لله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا» ولا يتعرض هذا الرجل للأذى ولا للسجن.. هذه هي

الحرية.. ليست الحرية انفلاتًا من القانون، بل هي الالتزام بالقانون الصحيح فلا انصياع إلاّ للحق. إن كان الحاكم على حق في تصرفاته، وعلى هدى من ربه فكلامه مقبول، وإلاّ فهو مرفوض.

«لنخرج من شاء... من ضيق الدنيا إلى سعتها» المجتمع الذي يفتقد الرؤية الصحيحة، لا يرى فيه الفرد سوى متطلباته الدنيوية ولذائذه المادية ومصالحه الآنية النافهة. لم يكن أفراد المجتمع في عهد يزدجرد [7] راضين بأجمعهم عن هذا الحاكم، كان فيه كثير من الساخطين، لكنهم خافوا أن يعلنوا معارضتهم كي لا يخسروا هذه التوافه التي يلهون بها في حياتهم، كي يأكلوا المزيد، ويتمتعوا بالمزيد من هذا العيش الوبيء، لم يكن الفرد في هذا المجتمع على استعداد لأن يهملّ بعمل من أجل حرّيته ومن أجل شرفه وأصالته وفضيلته الإنسانية. لماذا؟ لأن أفق الرؤية ضيق.. الدنيا ضيقة في رؤيته.

وحين تشرف هذا الإنسان بالإسلام، أصبح كل شيء عنده مقدمة لهدف كبير.. لحياة رحبة واسعة.. لا أقصد الحياة بعد الموت، بل في هذه الحياة الدنيا أصبحت رؤيته واسعة بسعة الله. كل شيء يريد من أجل رضا الله. لذا نذ الدنيا وحطامها ماعادت لديه ذات قيمة وأصالة، قيمتها تكتسبها حينما تكون «في سبيل الله». الدنيا والآخرة متصلتان في الفكر الإسلامي. وليس للحياة نهاية في نظر الإنسان المسلم فهي واسعة واسعة. والموت نافذة يطلّ منها الإنسان المسلم على نعيم الآخرة عندئذ يهون الموت عنده.

أشير إلى أن آية الكرسي التي تناولناها في الجلسة السابقة هي شعار رائع للتوحيد، ولعلّ هذا هو سبب التأكيد على تكرار تلاوة هذه الآية المباركة. ونبدأ بآيات هذه الجلسة، وأولها الآيات 165-166 من سورة البقرة، وفيها تصوير لأحد مشاهد القيامة، وترتبط تمامًا بمسألة التوحيد.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُتَّخَذُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ مِن الْبَشَرِ أَوْ مِن غَيْرِ الْبَشَرِ.

(يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) [8] هؤلاء يحبون هذه الأنداد كالحب الذي يجب أن يحملوه تجاه الله. لكن الذين آمنوا يحبون الله حبًا هو أشدّ من ذلك الحب الذي ينجذب إليه المنشدون بطواهر الحياة الدنيا وبالآلهة المزيفة، وبالآلهة الأهواء والشهوات، وبالآلهة التي تترعب على صدر المجتمعات.

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وينتقل المشهد فجأة إلى يوم القيامة، حيث يُحشر فيه الناس العابدون منهم الله والعابدون لغير الله.



والحمد لله رب العالمين.

---

[1] - الجائفة / 24

[2] - الحديد / 25

[3] - التوبة / 34

[4] - عن الإمام الصادق: «تَرَى اء أعطى من أعطى عند الرجل ودائع» بحار الأنوار، كتاب العشرة، أبواب حقوق المؤمنين، الباب 78، ح 6.

[5] - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اء أذهب نخوة العرب وتكبرها بأبائها وكلكم من آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند اء أتقاكم» المصدر نفسه، كتاب الكفر والإيمان، أبواب مكارم الأخلاق، باب 56، ح 10.

[6] - مبعوث الجيش الإسلامي

[7] - آخر الملوك الساسانيين في إيران.

[8] - المؤمن / 16